September 2019
Vol 1 Issue 3

The policy of the Ottoman Empire towards the Arab and Kurdish tribes in Mosul after the return of central rule in 1834 AD

Dr. Saja Qahtan Muhammad Qaba

Saja @gmail.com

Issn print: 2710-3005. Issn online: 2706 – 8455, Impact Factor: 1.705, Orcid: 000-0003-4452-9929, DOI 10.5281/zenodo.10513700, PP 104-115.

Abstract: In the light of the above discussed, we can say that the tribes in the state of Mosul played a significant role, as this role has been given a political character, forcing the ottoman authorities to deal with it seriously and trying to appease it in fear of what might happen in the continuation of the clans in the Ottoman authorities, especially some of these tribes had a political and military status like Shammar Al-Jarba in Jazeera region and the evidence of the strength and prestige of the clan is the attempt by the ottoman rulers since before the return of direct rule to Mosul to benefit from the strength of this clan and the relations of its political sheikhs.

But the ottoman authorities were not taken one way only, sometimes the Ottomans felt that they were in their interest to keep the situation of bickering, disagreements and conflicts between clan elders so that they would get close to it and take away the money and gifts on this and provoke the other in the way that you can eliminate the clan to serve their interests.

Finally, the experience of settling clans that Medhat Pasha tried to implement was not easy, as the tribesmen realized that the aim was first and foremost in the interest of the state to resettle them means easy taxation of them and it means the easy imposition of conscription and making them loyal dependent citizens of the Government of Ottoman this is what they did not accept for

themselves especially with the presence of the interclass among the tribes and represented by foreigners, whether consuls or archaeologists, who realized that the paper of the clans a trump card through which they can pressure the ottoman government and interfere in the internal affairs of the state.
Keywords: The Ottoman Empire, Arab and Kurdish clans, central rule.

سياسة الدولة العثمانية تجاه العشائر العربية والكردية في الموصل بعد عودة الحكم المركزي اليها 1834م

ملخص الدراسة: تعد منطقة الموصل من المناطق الجاذبة للسكان وذلك بحكم موقعها الجغرافي المتصل بالجبال من الشمال الشرقي والمنطقة السهلية في الجنوب والجنوب الغربي...فضلاً عن خيراتها الوفيرة فمن أولى القبائل التي سكنت الموصل في أعقاب حروب التحرير الاسلامية قبائل تغلب وإياد وقريش وبني تميم كما أن حركة الاستيطان استمرت في فترات لاحقة خاصةً بعد دخول الموصل تحت السيطرة العثمانية. ومن أبرز المجاميع الاثنية التي سكنت الموصل كانت وما تزال العشائر، حيث احتوت المدينة اعداداً كبيرة من العشائر المتوطنة والرحالة والمستوطنون هم أشبه ما يكونون بأهل القرى إلا أن هؤلاء قليلون قياساً بالرُحل، وتنقسم هذه العشائر إلى قسمين: عربية وغير عربية.

حاولنا ومن خلال هذا البحث أن نسلط الضوء على أوضاع تلك العشائر وكيفية تعاملها ونظرتها إلى الحكومة العثمانية وهل استطاعت تقبل الحكم العثماني والقوانين العثمانية والتي غالباً ما كانت تعامل بالرفض وعدم الرضا والذي يظهر بشكلٍ جليٍ على شكل تمردات وغارات تشنها تلك العشائر على القوافل وخاصة التابعة للحكومة فضلاً عن محاولتنا تسليط الضوء على التجربة التي قام بها الوالي الشهير مدحت باشا (1869-1972م) الهادفة إلى ربط تلك العشائر بالأرض وتوطينها للتخفيف من وطأة تأثير ممارسات تلك العشائر على السلطات الحاكمة فنجح مع بعضها وفشل مع البعض الآخر.

الكلمات المفتاحية: الدولة العثمانية، العشائر العربية والكردية، الحكم المركزي.

المقدمة

نظرة إلى العشائر العربي والكردية في ولاية الموصل، احتوت الموصل على اعداد كبيرة من العشائر المتوطنة والرحالة. والمتوطنون هم اشبه بأهل القرى إلا أن هؤلاء قليلون قياسيا بالرحل وتنقسم هذه العشائر الى قسمين: عربية وغير عربية.

وتعد عشيرة شمر من اشهر العشائر العربية التي استوطنت نواحي الموصل قادمة من نجد[1]. وهي من اكبر العشائر على الاطلاق وقد سكنت في المناطق الممتدة من شمالي بغداد الى منطقة جبل سنجار حيث يوجد القسم الاعظم منه[2].وتتفرع شمر الى عشرين فرع[3]. ويرأس كل فرع شيخ إلا انهم جميعاً يعترفون بشيخ عام هو صفوك آل جربا[4]وتعيش العشيرة على رعي المواشي وتتجول في انحاء الجزيرة طلباً للكلأ. وشمر عشيرة قوية استطاعت ان تزيح العشائر في الجزيرة كطيء والجبور والجحيش والعقيدات واستولت على منازلهم واصبحت الجزيرة موطناً لهم.[5]

اما العشيرة الثانية فهي طيء وتقيم وراء الزاب الكبير ويسكن معظم ابنائها القرى والبعض الاخر يسكنون بيوت الشعر[6]. ثم تأتي عشيرة العبيد ثم الجبور الذين يسكنون اطراف الجزيرة بعد ان كانوا يسكنون داخلها قبل مجيء شمر[7] وقد استوطن قسم منهم ضفة دجلة اليمنى وهم يعملون بالزراعة ويسكنون القرى ومنهم من يسكن بين اسكي الموصل وقرية زمار ومنهم من يسكن جوار قرية الحميدات في شمال الموصل وجوار تلعفر[8] والبو حمد فرع اخر من فروع العبيد إلا انهم عشائر متنقلة في نواحي الموصل[9]

ومن العشائر العربية ايضاً الجحيش وتنتسب الى قبيلة ازد وتقيم غالباً في القرى المجاورة لتلعفر وسنجار. ثم عشيرة العقيدات او العكيدات في غربي الموصل على ضفة نهر

[1] نزحت شمر الى العراق في ثلاث موجات. الاولى قبل ما يقارب خمسمائة سنة بقيادة الشيخ جراح وسكنوا اعالي منطقة الجزيرة شمال الموصل على نهر سمي نهر الجراحي. والثانية حدثت في القرن السابع عشر تقريباً ممثلة بنزوح عشائر شمرية واخرى عنزية. اما الثالثة فقد حدثت في اواخر القرن الثامن عشر ممثلة بقدوم بيت الرئاسة[أسرة آل محمد الجربا) شيوخ شمر وكان ذلك اهم حدث سياسي في تاريخ قبيلة شمر، ينظر: زهير علي النحاس، "بادية الجزيرة العراقية موطناً للبداوة العربية النجدية، قبيلة شمر نموذجاً(1914-1791م)"، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 26-27، كانون الثاني،2000م، ص313-318.

[2] جميس بيلي فريزر، رحلة فريزر الى بغداد 1834م، ترجمة جعفر الخياط، ط1، (بغداد،1964) ص131؛ مكي الجميل، البدو والقبائل الرحالة في العراق، ط1، (بغداد،1956) ص279.

[3] من فروع شمر (خرصة، بريج، عليان، الهيضة، الشيوخ، العامود، الصايح ، سنجارة ، ثابت، فداغة ، تومان، عبدة بنو سالم)، ينظر: الصايغ، المصدر السابق، ج1، ص53.

[4] آن بلنت، قبائل الفرات عام 1878م، ترجمة اسعد فارس ونضال خضر معيوف، ط1،(دمشق1991م)، ص458، ويقول العزاوي ان الجربا نبز الصق بآل محمد وقد وصل اليهم عن امهم حيث يقال انها اصيبت بمرض جلدي فتركها اهلها ورحلوا الى موطن اخر ثم تعافت فلزمها هذا الاسم ومن عادات البدو ان يتركوا المصاب بالجدري ويرحلوا عنه حتى يبرأ او يموت تخلصاً من العدوة ويراقبونه من بعيد ويضعون له ما يحتاجه من اكل وماء. ينظر: العزاوي، عشائر العراق، ج1، ط1(بغداد،1937) ص131.

[5] طه الهاشمي، مفصل جغرافية العراق،، ط1، (بغداد: 1930)، ص ص428-429.

[6] محمد يونس عبد الله وهب، تاريخ تلعفر قديماً وحديثاً، ج1، ط1، (الموصل: 1967)، ص73.

[7] ويقال ان قبيلة الجبور كانت بقيادة اخوين قبل دخول شمر الى الجزيرة العربية إلا أن الاخوين اقتتلا فأنقسمت القبيلة الى قسمين قسم سكن ضفاف الفرات ودجلة وقسم سكن ضفاف الخابور. ينظر: الهاشمي، المصدر السابق، ص ص 431-432.

[8] المصدر نفسه

[9] وهب، المصدر السابق، ج1، ص74.

الخابور وهنالك من يسكن منها داخل الموصل في منطقة باب البيض، وعشيرة البو بدران ويقال انهم هاشميون[10].وهناك ايضاً البو سلمان ويقيمون في جوار أطلال النمرود ويزاولون الزراعة في الاغلب[11] كذلك الحديديون الذين يقول عنهم العزاوي:" انهم لم يكونوا شيئا يذكر بل كانوا مسالمين وحالة البداوة ضعيفة بينهم ولم يكن لهم رئيس واحد ولم تنتظم احوالهم حتى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر"[12] وهناك ايضاً عشيرة آل غرير وهم من فروع البو حمدان، وبنو حسين، وبنو دولة، وبنو عياش، والشهوان، والبو نجمة، ثم عشيرة الالهيب ويعيشون في الغالب شرقي الزاب.[13]

وهناك بعض العشائر الرحالة التي تأتي الى اطراف الموصل لفترة معينة ثم تغادرها كعشيرة عنزة[14] التي تأتي الى اطراف الموصل لشراء الزاد والذخائر وبيع بعض الخيول وتارة يتخذون طريق الغارة والسلب والنهب.[15]

وفضلاً عن العشائر العربية فقد سكنت المصل العديد من العشائر غير العربية كالعشائر الكردية ومنها البوط ويسكنون القرى التي على الخابور وعشائر النافكر والجفرة والعشائر السبعة في شرقي الموصل والكوجر[16]. وكذلك عشيرة الكركية الذين يجتمعون في اسكي الموصل[17] والسليفاني في شرقي دجلة وقراهم بجوار زاخو ثم الدزدي وراء الزاب[18] ثم عشائر الزيبار، ونزار، بربلي، السورجية، بهدينان، الهركية في عقرة، وزيدكي وهم من الاتروش في الشيخان .[19]

علاقة الحكومة العثمانية بالعشائر العربية والكردية في ولاية الموصل:

لقد لعبت العشائر دورا هاما في الناحية السياسية خلال القرن التاسع عشر ولاسيما عشيرة شمر الجربا التي كانت ذات مكانة سياسية وعسكرية في منطقة الجزيرة وقد اهتم الولاة منذ ما قبل عودة الحكم المباشر بالاستفادة من قوة شمر ففي عام 1809م وعند نزول شيخ شمر فارس الجربا جبل

[10] []الصايغ، المصدر السابق، ج1، ص53؛ وهب، المصدر نفسه.

[11] [] عباس العزاوي، الموصل، مخطوطات محفوظ في مركز بغداد للوثائق والمخطوطات ، تحت رقم (351506)، ورقة 25.

[12] [] المصدر نفسه، ورقة 3

[13] [] وهب، المصدر السابق، ج1، ص 74

[14] [] ان نفوس عشيرة العنزة كثيرة وهم منتشرون في بغداد والموصل وديار بكر وحلب والشام وماردين ويتجولون في الصحارى والبراري يرعون الكلأ والماء. انظر: العزاوي، الموصل، ورقة26.

[15] []لقد كان للعداء التقليدي بينهم وبين شمر تأثير في فقدان الامن في عدة مناطق، حيث يذكر صاحب كتاب تلعفر قديماً وحديثاً نفلاً عن شهود معاصرين انه في عام (1857م) قدمت عشيرة عنزة من الشامية الى الموصل ونزلوا في تلعفر طلبا للكلأ والماء اثر شح الامطار في مناطقهم وبالنظر للعداوة المتأصلة بين شمر وعنزة تُعد غريبة في تلك المطقة وفرضت وجودها بالقوة فقد حدث الصدام بين شمر وعنزة وكان فيه عنزة هي الاقوى مما حدا بالشيخ فرحان شيخ شمر الى طلب المساعدة من الاعافرة والجبور وغيرهم الا ان ذلك لم يجد نفعا حيث كانت الغلبة لعنزة، للتفاصيل ينظر: وهب، المصدر السابق، ج1، ص 119-121.

[16] []) عشائر الكوجر يقسمون الى عدة اقسام هي : زيدك، ومهدان، وشرقان، وهاجان، وهؤلاء يقيمون شتاءاً في اطراف سميل ودهوك وزاخو وفي الصيف يرحلون الى جبل زوران، ينظر: المصدر نفسه، ص 74.

[17] []العزاوي، الموصل، ورقة 25.

[18] []وهب، المصدر نفسه، ج1، ص75

[19] [] العزاوي، الموصل، ورقة 3.

سنجار ارسل اليه والي بغداد سليمان باشا يسترضيه ويحاول اقناعه بمعادات اهل الموصل فأبى وامتنع واتفق مع امير طي فارس بن محمد على الوقوف الى جانب والي الموصل[20] لصد محاولات سليمان باشا القائمة على اساس ضم الموصل الى بغداد.[21]

لقد اقتضت السياسة العثمانية في العراق ان تبقى العشائر على ما كانت عليه من تشاحن وخلافات فضلت هذه العشائر تتنازع فيما بينها مرة وتتنازع مع الحكومة مرة اخرى[22] فقد عمدت السلطة العثمانية الى استغلال العداء بين العشائر لصالحها في الوقت الذي كانت فيه العشائر تتحول في ولائها عن السلطة إذا ما حصل اي خلاف بينهما فمع محاولة الدولة اعادة الحكم المباشر الى العراق تحالف شيخ شمر صفوك الفارس مع علي رضا باشا لأنهاء حكم داؤود باشا ودخول بغداد [23]الا ان صفوك اختلف مع علي رضا باشا اللاز[24] فتحول عنه ليتحالف مع اعداء العثمانيين المتمثلين بالقيادة المصرية ابان فترة الانتشار المصري في المشرق العربي غلى عهد محمد علي باشا فكان لصفوك مراسلات متصلة مع ابراهيم باشا قائد الجيوش المصرية في الشام ومع محمد علي باشا نفسه وتحالف مع يحيى باشا الجليلي اخر ولاة الاسرة الجليلية في الموصل بعد ان قام العثمانيون بعزله ويبدو ان هذا التحالف كان بتنسيق مع القيادة المصرية في الشام.[25]

ورداً على الموقف السابق لشيخ شمر عمد علي رضا باشا الى تحريض عشائر عنزة ضد التحالف بين يحيى باشا الجليلي والشيخ صفوك. ومن جانب اخر عملت السلطة على كسر اتحاد العشائر الضعيفة لان اتحادها من شأنه ان يكون قوة تقف بوجه السلطة لذلك كان لسياسة " فرق تسد" اهمية في هذا الجانب وفي الاوقات التي كانت فيها السلطة تضعف عسكرياً كانت تستخدم سياسة استمالة رؤساء العشائر للحصول على ولائهم وذلك بمنح الدعم الرسمي والالقاب الشرفية للزعماء الاقوياء[26] كما حاولت الحكومة ضرب العشائر بيد عشائرية فمثلاً عمدت الى

[20] [] أرشيف رئاسة وزراء استانبول، رقم الوثيقة 20715- ، تاريخها13 رجب 1249هـ/1833م، نسخة مصورة ومحفوظة في مركز التوثيق الإعلامي في وزارة الثقافة في بغداد، تتضمن رسالة اهالي الموصل الى الصدارة يرفضون فيها عزل الوالي يحيى باشا الجليلي الا اذا كان ذلك بإرادة سلطانية، وينظر ايضاً: ياسين بن خير الله الخطيب العمري، غرائب الاثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر(الموصل،1940)، ص 199.

[21] []للتفاصيل عن هذه المحاولة ينظر: عماد عبد السلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني فترة الحكم المحلي، (1834-1726م)، ط1، (النجف: 1975)، ص 139 وما بعدها.

[22] [] عبد الله فياض، الثورة العربية الكبرى سنة 1920، ط2، (بغداد،1075)، ص 25.

[23] []أ.ر.و.أ، رقم الوثيقة 29413-، تاريخها 1246هـ/1830م، تضمنت رسالة الشيخ صفوك الى والي بغداد الجديد علي رضا باشا اللاز وحول دخول القوات التركية الى بغداد لتنحية داؤود باشا.

[24] [][]اللاز أو اللاظ: هم الذين ينتمون إلى الجراكسة بصلة ويقطنون في الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الأسود. ينظر: بير بلال حسن، أربيل في أدوارها التاريخية، ط1، (النجف: 1970)، ص355؛ فريزر، المصدر السابق، ص 132.

[25] [] النحاس، المصدر السابق، ص ص 329-330.

[26] [] جون فريدريك وليمسون، قبيلة شمر العربية مكانتها وتاريخها السياسي(1958-1800)، ترجمة مير البصري، ط1، (لندن، 1999)، ص 74.

تعين الشيخ هجر شيخ للمشايخ عندما قامت شمر بأعمال السلب والنهب في العديد من قرى الموصل عام 1851م وخصصت له الحكومة راتباً شهرياً على ان يقوم بالمحافظة على قرى الموصل وغلاتها ومنع اي تعد من قبل سائر العشائر ولم تكتف بذلك بل حددت رواتب لاتباع الشيخ المذكور يتسلمونها من مجلس الولاية مقابل تعهدهم بتوفير الامن والانضباط في انحاء الولاية.[27]

لقد كانت عمليات السلب والنهب من قبل العشائر منتشرة على الطرق الخارجية للمدينة وفي القرى الامر الذي شكل اخلالا بالأمن قلقلت له السلطة، فقد حدثت الكثير من هذه الوقائع خلال الفترة قيد البحث منها ما حدث عام 1849م من قبل عشيرة الثابت من شمر والتي اغارت على البريد الرسمي[28] وتكرر ذلك الاعتداء عام 1850م من قبل العشيرة نفسها الامر الذي شكل تهديداً لطرق المواصلات فقدم الشيخ فرحان شيخ شمر تعهداً الى الدولة بإعادة ما سرق من بريد وأموال إلا ان ذلك لم يردع شمر على التعدي على قرى قضاء الموصل الامر الذي ادى الى اقدام السلطة العثمانية على القبض على شيخ الجبور(عبد ربو) ومحاكمته[29] ويذكر نائب القنصل البريطاني هرمزد رسام ان حالة السلب والنهب وفقدان الامن كانت سائدة على الطرق بين القرى والمدينة.[30]

وفضلاً عن اعمال السلب والنهب كانت التمردات والحركات الموجهة ضد الحكومة قائمة ايضاَ ففي عام 1855م قامت العشائر ومنها الجبور بحركات مناوئة للسلطة مما ادى الى ان رفع مجلس ايالة الموصل مذكرة الى مشير الداخلية لاتخاذ الاجراءات اللازمة لردع العشائر.[31]

ويمكننا ان نرجع اسباب التمردات العشائرية الى عاملين اساسيين الاول: يكمن في نظرية العثمانيين القائمة على اساس اعتبار جميع الاراضي المستولى عليها املاكاً اميرية الامر الذي يتنافى مع ما تسميه العشائر(بالديرة) والتي تعد ملكاً لها دون غيرها ويظهر أن الحكومة العثمانية لم تقدر تقديراً كافياً حقوق العشائر المكتسبة في ديارها قبل قدوم العثمانيين لهذه البلاد فكان العثمانيون يتجاهلون قدر الامكان مثل هذه

[27] [] أرشيف رئاسة وزراء استانبول، الموصل وكركوك في الوثائق العثمانية..، ترجمة: خليل علي مراد وعلي شاكر علي، وثيقة رقم 16، مؤرخة في 22 شوال 1267هـ/1851م، ص 107.

[28] []أ.ر.و.أ ، رقم الوثيقة5892، تاريخها 18 جمادي الاولى 1266هـ/1849م.

[29] []أ.ر.و.أ ، رقم الوثيقة8579، تاريخها 25 جمادي الاولى 1268هـ/1851م، أ.ر.و.م، رقم الوثيقة 8519، تاريخها 4 رمضان 1268هـ/1851.

[30] ()Harmazad Rassam, Ashor and the land of Nimrod, (Newyork, 1897), p, 45

[31] []الارشيف العثماني في استنابول، رقم الوثيقة 2179، تاريخها 25 صفر 1272هـ/1855م.

الادعاءات[32]. اما العامل الثاني: فيكمن في سياسة الولاة القائمة على اساس الاستفادة من مدة بقائهم في مناصبهم وجمع اكبر قدر ممكن من الاموال عن طريق فرض الضرائب على سكان المدن والعشائر والذي كان يشكل أداة ضغط على ابناء العشائر تدفعهم الى التمرد وكانت هذه التمردات تؤدي في بعض الاحيان الى ان يفقد الوالي منصبه كما حصل لنجيب باشا(1849-1842م) والي بغداد بعد ان ادت سياسته الى تمرد شمر بقيادة الشيخ عبودة فأنتشرت الفوضى على جانبي دجلة وصاحب هذا التمرد ضعف نفوذ نجيب باشا بسبب رفضه لاتفاق السلام الموقع بين عبدي باشا قائد الجيش العثماني في ولاية بغداد وبين القبائل المتمردة.[33]

إن الحملات التي كانت ترسلها الحكومة لقمع تمرد العشائر وكسر شوكتها التي أبتدأت من حملة محمد إينجة باشا البيرقدار[34] لم تكن تجدي نفعاً في كثير من الاحيان ويحدد لنا بلاس[35] القنصل الفرنسي في الموصل عام1854م اسباب فشل هذه الحملات من خلال رسالة ارسلها الى حكومته بعد غارة شنتها العشائر البدوية على ارباض الموصل حيث ويذكر ما مفاده " ان سبب فشل الحملات العثمانية على العشائر هو ان القائمين عليها كانوا يهتمون بالتجهيز لما يلزم الباشوات والضباط الذين يتولون قيادة الحملة من موكب خدم، وحشم، وسجادة، واسرة، وغير ذلك من الادوات التي تكفل لهم الراحة التامة اكثر من اهتمامهم بالتخطيط للحملة ذاتها وبطريقة تنفيذها[36]. اي ان هذه الحملة اشبه بقافلة خارجة في رحلة اكثر مما يمكن ان توصف بأنها حملة عسكرية.

وكطريقة لاستعراض القوة استخدم بعض الولاة سياسة الترهيب ضد العشائر مثل نامق باشا (1853-1851م) والي بغداد حيث اعتقل احد شيوخ شمر كجزء من سياسة السيطرة على العشائر واذلالها.[37]

والواقع ان عشيرة شمر لم تكن ضعيفة بالشكل الذي يسهل على الحكومة السيطرة عليها واخضاعها حيث امتلكت هذه العشيرة نفوذاً سياسياً بين عشائر المنطقة فكانت

[32][]عبد الله فياض، "الزراعة والتجارة في العراق"، مجلة الاستاذ، م11-ع11، 1962-1963، ص ص 393-394م.

[33][] وليمسون، المصدر السابق، ص54.

[34][]الصايغ، المصدر السابق، ج1، ص 314؛ إنجة بيرقدار: كلمة تركية تعني (حامل العلم الرفيع) ويظهر أن هناك حامل علم أخر بالأسم نفسه أضخم جسداً منه، فأعطي هذا الوصف للتفريق بينهما. ينظر: سالنامة ولاية الموصل (1335هـ/1907م)، ص 99.

[35][]بلاس فيكتور(Place Victor) 1818-1876م : كان قنصلاً لفرنسا في الموصل وقد استأنف عمليات التنقيب في خور سباد(1852-1854م) وكشف عن اثار عظيمة شحنها على الارماث(الاكلاك) من الموصل الى البصرة تمهيدً لنقلها بالبواخر الى فرنسا ولكنها غرقت في القرنة وتعد هذه الحادثة من اكبر الحوادث الاثارية في القرن التاسع عشر ولم تسلم منها الا قطعة وصلت الى متحف اللوفر. ينظر: بيير دي فوصيل، الحياة في العراق منذُ قرن (1814-1914م)، ترجمة: أكرم فاضل، ط1، (بغداد: 1968)، ص 11.

[36][] فوصيل، المصدر السابق، ص98.

[37][] محمد عبد الكريم غرايبة، مقدمة تاريخ العرب الحديث (1500-1918م)، ط1، (دمشق: 1960)، ص197.

تجمع عنوة(الخاوة) من العشائر الاضعف[38] المستقرة في الاقاليم كعشيرة الجحيش والجبور في اقليم الخابور وكذلك اهالي تلعفر وقبيلة طيء شمال الموصل. اما من الناحية العسكرية فقد كانت شمر تمتلك قوة كافية للإغارة على الطرق التجارية الحيوية التي كانت تمر في ديارها وعلى الرغم من انها لم يعد باستطاعتها محاصرة مدينة كاملة كما فعلت في الثلاثينات من القرن التاسع عشر الا انها مازالت قادرة على تحدي جيوش الحكومة.[39]

وبالنظر لضعف الكومة في فرض سيطرتها خارج اسوار المدن، فقد كانت العشائر تتبادل الخدمات والحماية مع بعضها بدلاً من الاعتماد في ذلك على حكومة غير مؤهلة ولقد علمت التجربة العشائر ان ضعفها يجعلها عرضة لبطش الحكومة او حتى للعشائر الاخرى فقد سعت العشائر الى تحصين مراكزها بتوحيد نفسها في مجموعات اكبر او اتحادات عشائرية[40]، وفي سعيهم لضرب هذه التجمعات استخدم العثمانيون سلاحاً غاية في الفاعلية وهو سلاح الارض[41] وهو ما سنأتي على توضيحه لاحقاً.

ولا يفوتنا ان نذكر هنا مسألة غاية من الاهمية اثرت في علاقة السلطة بالعشائر تلك هي محاولة الاجانب متمثلين بالاثاريين والقناصل التقرب من العشائر واثارة الاضطرابات الموجهة ضد السلطة في المناطق العشائرية ومما له دلالته ان العديد من هذه الاضطرابات كانت تتزامن مع الخلافات التي تنشا بين السلطة العثمانية والبريطانية[42] والملاحظ ان القناصل الانكليز وعلى الرغم من ان الدولة كانت توفر لهم الحماية عند ترحالهم في المناطق المختلفة كانوا في الوقت نفسه يتصلون بشيوخ العشائر ويطلبون منهم توفير الحماية لهم عند مرورهم بمناطق سكنى العشائر وهذا ما فعله هرمز الرسام عندما غادر الموصل في طريق عوته الى انكلترا حيث كتب الى الشيخ فرحان شيخ شمر يطلب منه ارسال حرس

[38] []كانت هذه المبالغ التي تعرف بالمصطلح العامي(الخاوة) تؤخذ من اصحاب المدن اذا ارادوا المرور بارض العشيرة ولم تكن هي البدل النقدي الوحيد الذي يتقاضاه الاعراب حيث كانوا يتقاضون بدل اخر يسمى(الخفارة) لقاء نقلهم لبضائع التجار واموالهم على اباعرهم وحمايتهم للقوافل التي تنقل هذه البضائع وتدفع الخفارة لهم من قبل اصحاب القوافل. ينظر: أنستانس ماري الكرملي، خلاصة تاريخ العراق منذُ نشؤه حتى يومنا هذا، ط1، (البصرة: 1919)، ص162.

[39] [] في اوقات الحروب كانت القبيلة تعين قائداً عسكرياً تختاره نتيجة لمؤهلاته القتالية ويدعى هذا القائد بالعقيد ويعهد اليه بكل العمليات والخطط العسكرية وقيادة الغزوات والحملات والانسحاب وربما يكون الشيخ نفسه هو القائد ولكن القاعدة لا تكون عامة في هذا الامر : ينظر: بلنت، المصدر السابق، ص458.

[40] []وميض جمال عمر نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية(الاستقلالية) في العراق، ط1 ، (بيروت،1984)، ص 37.

[41] [] حنا بطاطو، العراق الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، الكتاب الاول، ترجمة: عفيف رزاز، ط1، (بيروت: 1990)، ص100.

[42] [] صالح خضر الدليمي، الدبلوماسيون البريطانيون في العراق (1813-1914) دراسة تاريخية، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، (الجامعة المستنصرية:1996)، ص 164.

لمرافقته الا ان الاخير اعتذر عن ذلك مما ادى برسام الى اللجوء الى شيخ عشيرة عبدة الذي بادر الى ارسال ابنه لمرافقة رسام واوصله الى منطقة اورفة[43] كما حاول لايارد[44] من قبله كسب ولاء الشيخ صفوك[45] فقام بزيارة له عام1846م حيث يقول:" كان هدفي من زيارة مخيمه تحقيق غايتين. الاولى كسب صداقة رئيس قبيلة عربية من المحتمل ان يعبر النهر صيفاً الى منطقة قريبة من مناطق التنقيب عن الاثار في النمرود وقد يطلق اتباعه العنان لميلهم الى النهب والسلب والذي قد اكون عرضة له. اما الثانية فهي لهفتي في الوقت نفسه لزيارة اطلال الحضر الشهيرة.[46]

هذا ما يتعلق بالعشائر العربية حتى تلك الفترة اما بالنسبة للعشائر الكردية فقد كانت الحروب صفة مميزة للحياة العشائرية الكردية والواقع ان اسباب تلك الحروب ترجع الى عوامل سياسية وجغرافية والثانية هي احدى مسببات الاولى. فوعورة المنطقة الجبلية وندرة المواصلات فيها قد جعل من الصعب على الحكومة فرض سيطرتها على العشائر الكردية والتي لم تكن الدولة تهتم لأمرها الا بالقدر الذي يمكنها من جمع الضرائب. كما اثر الموقع الجغرافي ووعورة الاراضي الكردية في خلق التنافس الدائم على الاراضي الزراعية الخصبة والمراعي الغنية ولهذا فأن عامل الاحتكاك بين العشائر المختلفة كان متوفراً على الدوام هذا من ناحية. ومن ناحية اخرى فأن قلة مصادر المياه في القرى الكردية كان يحمل السكان الزائدين على ترك القرى والهجرة الى اماكن اخرى لتخفيف الضغط على المياه وكثيراً ما يكون الاكراد الذين تربطهم رابطة النسب فرقة حربية تشن الغارات على القرى الضعيفة وتستولي اراضي سكانها[47]. وهذا ما فعله اكراد ناحية زيبار عام 1871م حيث قاموا بعدة غزوات على المناطق المجاورة لهم مما حدى بالحكومة الى تجهيز طابور عسكري لتأديب هذه العشائر على الرغم من ادراك الحكومة لمدى مناعة وحصانة موقعهم وتمكنت العساكر من قتل رؤسائهم واسر اعداد كبيرة منهم وتم ارسالهم الى الموصل للاعتقال.[48]

---

43 () Rassam,op,Cit,p. 45

44 [] أوستن هنري لايارد (1817-1849): بريطاني من عائلة عملت في السلك الدبلوماسي وبحكم وظيفة والده نشأ محباً للسفر والترحال فقضى سنوات في فلسطين وسوريا وإيران والعراق، مر بالموصل لأول مرة سنة 1840 وزار الاطلال والتلول قبالة المدينة على الجانب الشرقي من نهر دجلة كما زار الشرقاط، وبعد عامين من السفر زار الموصل سنة 1842 حيث لاحظ التنقيبات التي كان يقوم بها القنصل الفرنسي بوتا ثم غادر إلى العاصمة العثمانية على أمل الحصول على ترخيص للقيام بنشاط اثاري في الموصل وأطرافها وتم ذلك بالفعل. أيز روبتسن باي، قصة الأثار الاشورية، ترجمة: يوسف داؤد عبد القادر، مراجعة: لطفي الخوري، (بغداد: 1972)، ص 48-51.

45 [] عبد العزيز سليمان نوار، اثار العراق والصراع الاستعماري في القرن التاسع عشر، مجلة الهلال، شباط1965، ص 142-144.

46 () Austin Henry Layard, Ninevah it's Remaind, (London, 1849), Vol. 2 . P.82.

47 [] شاكر خصباك، الاكراد، دراسة جغرافية وأنثوغرافية، ط1، (بغداد: 1973)، ص 384.

48 [] الزوراء، ع(129) ، 4 محرم 1288هـ/1871م.

سياسة مدحت باشا تجاه العشائر في ولاية الموصل، ومع مجيء مدحت باشا الى دفة الحكم وضع مشكلة العشائر ضمن مشروعاته الاصلاحية فبعد دراسة النواحي المختلفة للمشكلة قرر ان يسكن اكبر عدد ممكن من أبناء العشائر في نفس ديارهم ففيما مضى حين كانت الاوامر تصدر الى احدى العشائر بوقف غاراتها لم تكن الحكومة تبادر بإعطاء البديل لهذه العشائر بل تهدد فقط بإجراءات تأديبية قاسية غيران مدحت باشا اوجد بديلاً لذلك فأمر بمسح الاراضي لكي يتمكن من بيعها الى افراد من العشائر وقد فكر ان ضمان التملك والمصلحة الدائمة التي تخلق على هذا الوحه تشكل دوافع قوية لرجال العشائر لترك طريقة حياتهم السابقة[49] كما انه تصور بأنه سيجعل افراد العشائر مسؤولين مباشرة امام الدولة متخطين سلطة الشيوخ مما سيشكل بدوره ضربة مهمة للنظام العشائري.

الا انه كان من المنطقي ان تنكر العشائر على الحكومة مثل هذه الدعوة حيث ان ملكية العشائر للأرض لم تكن تستند على هبات او وثائق تحريرية بل انها استولت عليها اما عنوة او استوطنتها وزرعتها عندما كانت متروكة.[50]

من جانب اخر فقد كان مدحت باشا يرى ان مسألة استقرار العشائر تضمن للدولة سهولة فرض الضرائب عليهم واستحصالها من جهة ومن جهة اخرى فأنها تضمن سهولة تجنيد ابناء العشائر وبذلك تكون العشيرة اكثر انقياداً لأوامر الدولة وفعلاً بدأت الخطة تنفذ فقلد الوالي العديد من شيوخ العشائر وظائف حكومية وجعلهم مسؤولين عن المنطقة التي استقرت فيها العشيرة وبدأ الشيوخ يتسلمون رواتب شهرية من الدولة.[51]

في تلك الفترة كان فرحان هو شيخ شمر حيث آلت اليه المشيخة بعد مقتل ابيه صفوك الفارس[52] وقد منح فرحان لقب باشا[53]وكان تعيينه يخدم تطلعات السلطة حيث انه وصف الى التفاهم مع العثمانيين وتعهد لهم بأنه سيعمل على توطين شمر في الاراضي الزراعية الكائنة عند قلعة الشرقاط وحتى في سامراء.[54] الا ان عشيرة شمر عارضت توجهات فرحان وكان اخوه عبد الكريم في طليعة المعارضين لمشروع

[49] []وليسمون ، المصدر السابق، ص 164.

[50] [] نظمي، المصدر السابق، ص50.

[51] [] وليسمون، المصدر السابق، ص ص 164-165.

[52] [] للتفاصيل عن مقتل صفوك ينظر: محمد سلطان الشاوي، التاريخ، مخطوط محفوظ في مركز بغداد للوثائق والمخطوطات، تحت رقم 10657، ورقة 2.

[53] [] الزوراء، ع(126)، 1، ذي الحجة 1287هـ/1870م.

[54] []النحاس ، المصدر السابق، ص 331.

استيطان شمر وانتقد اخاه على تعاونه مع السلطة واشتدت معارضة عبد الكريم فتزعم حركة مسلحة على رأس(3000) مقاتل في اوائل عام 1871م ونادى في العرب ان اصلاحات مدحت باشا تهدف الى القضاء على تقاليدهم البدوية وناشد العشائر البدوية بالوقوف ضد سياسة السلطات العثمانية الامر الذي اثار حفيظة مدحت باشا فأعد العدة لتوجيه ضربة قوية لعبد الكريم في 17 تموز 1871م فنجح في القبض عليه وبعد محاكمته قضائياً تم إعدامه شنقاً فوق جسر على نهر دجلة بالموصل.[55]

ويحلل وليسمون السبب الذي دفع عبد الكريم الى القيام بحركة ضد الدولة بانه شعر ان مشروع التوطين الذي رفعه مدحت باشا يمثل نهاية لثقافة شمر النجدية فأستمسك بشدة بتراثه وقرر ان يحارب على الرغم من الفارق بين القوتين [56]وهذا الامر يتأكد لنا من خلال النقاش الذي دار بين مدحت باشا وعبد الكريم حول مشروع التوطين حيث قال عبد الكريم للوالي:" إن للشمريين خيل كثيرة واغنام ومواشي اين يذهبون بها" فأجابه الوالي:" يبيعونها ويشترون بها اقمشة يتجرون بها". فقال عبد الكريم :" يا سيدي مثل ما تامر لكن شمر ما يصيرون بجاجيل(اي بقاقيل)" [57]. وهذا يعني انه رافض كل الرفض مسألة تحضر البدو.

وبعد التخلص من عبد الكريم سنة1872م[58] بنى فرحان قصراً في الشرقاط الغربية والتف حوله جماعات من الشمرين وانصرفوا الى اعمال الزراعة وخصص مدحت باشا للشيخ فرحان راتباً شهرياً ومقداره(2000) قرش اي ما يعادل (200) ليرة يتقاضاها من محصولات عشيرته الزراعية [59]وعلى الرغم من فرحان لم يكن يقيم في قلعة الشرقاط بصورة دائمية لكنه حين كان ينزل هناك يعمد الى ادخال مظاهر متعددة من ثقافة الاستقرار وهو ابتعاد كبير عن عادات العشائر التقليدية ومن اثار التجديد استخدامه موظفاً دينياً ليؤم الشيخ واتباعه في الصلاة اليومية وليعلم ابنائه اللغة التركية ومع ان هذه الخطوة لم تدل على نهاية الحياة البدوية الا انها مثلت تطوراً جدياً في نظام حياة شمر النجدية.[60]

وفي عام 1875م حدث انقسام في صفوف شمر حيث انقسمت الى قسمين شمر الشرقية بقيادة الشيخ فرحان والتي تستقر في

[55] النحاس, المصدر نفسه، ص ص331-332، للتفاصيل عن الحركة ينظر: صديق الدملوجي، مدحت باشا، ط1، (بغداد: 1952-1953)، ص44.

[56] وليسمون، المصدر السابق، ص 17.

[57] الشاوي، المصدر السابق، ورقة 43.

[58] اتجه عبد الكريم الى بغداد فأرسل مدحت باشا جيشاً بقيادة الفريق اشرف باشا لحصره بين دجلة والفرات ومنع عبوره منهما وتعاون مع اشرف باشا والي ديار بكر فهزماه واجبراه على الفرار الى نجد وفي الطريق تمكن ناصر باشا شيخ المنتفق من اعتقاله وسلمه الى الحكومة فحوكم من قبل محكمة التمييز في بغداد وحكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم في الموصل عام1872م، ينظر: الدملوجي، المصدر السابق، ص44، غرابية، المصدر السابق، ص214.

[59] الدملوجي، المصدر السابق، ص45.

[60] وليمسون، المصدر السابق، ص175.

الموصل وشمر الغربية بقيادة الشيخ فارس بن صفوك الذي جعل مقره الصيفي على الخابور بالقرب من نصبين ومن ذلك الوقت تراجعت هيبة القبيلة وتشتت قواها لصالح العثمانيين ولاسيما بعد ان تمكنت الدولة من اقامة علاقات صداقة مع فارس عام1878م حيث عينته قائمقام ومنحته لقب باشا وساوته بالرتبة مع فرحان[61]ومن المحتمل ان تكون ظروف الحرب الروسية العثمانية هي التي حدت بالسلطات

العثمانية الى اجراء تغيير كبير في علاقاتها مع شمر التي تسيطر على مساحات واسعة بين العراق وسوريا وكذلك على الطريق الممتد بين الموصل وتكريت[62]. ومن جانب اخر فأن مسألة تقريب الطرفين لها وبصورة متساوية من شأنه ان يخلق التنافس بين الطرفين خاصة اذا ما حاولت الدولة تحريك هذا التنافس بأساليب خاصة ومع كل طرف على حدا.

وهكذا نلاحظ ان نتائج المجهودات العثمانية للسيطرة على العشائر اختلفت عن مجهوداتها في السيطرة على الحكومات المحلية ففي الوقت الذي استطاع فيه العثمانيون إعادة فرض الادارة المركزية على الموصل واخضاع الامارات الكردية وتكوين ادارات جديدة بموظفين عثمانيين فإنهم لم يستطيعوا اخضاع العشائر لسلطتهم بشكل قطعي.

[61][] ابراهيم خليل احمد، ولاية الموصل دراسة في تطوراتها السياسية(1932-1908م)، رسالة ماجستير، كلية الاداب،(جامعة بغداد،197م)، ص 113.

[62][]جاسم محمد حسن العدول، "الحرب الروسية- العثمانية (1877-1878) وأثارها على العراق"، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، ع(8)، السنة 1989، ص 96.